أوجه التفسير اللغوي في استنباط المعاني والأحكام

أ. محمد مرين
المركز الجامعي النعامة

الملخّص:

نزل القرآن الكريم باللسان العربي، ودعانا إلى فهمه والتفكر في معاني خطابه القرآني، لاستنباط دلالات وأحكام الشريعة الإسلاميّة، لبلوغ هدايته إلى الصراط المستقيم، لذلك كان التفسير اللغوي أحد الطرق المنهجيّة في فهم الخطاب القرآني.

Abstract:

Le noble Coran a été descendu dans leur propre langue arabe, il nous invité à comprendre et réfléchir sur la signification et les paroles coranique, pour retrouve les préceptes de L'islam, certes, ce coran guide vers la plus droit chemin, il était donc une linguistiques routes de la méthodologie d'interprétation dans la compréhension de la Coranique.

أنزل الله عزّ وجلّ القرآن الكريم على سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، هداية ورحمة للعالمين، بلسان عربيّ مبين، يقول تعالى:﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2)**﴾[1]. وتكفّل بحفظه وبيانه، فتهادت إليه القلوب والأفئدة، وحظي بالعناية حفظا وتلاوة، ونقلا ورعاية، وذكرا ومدارسة، وتفسيرا ومذاكرة، جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، وعصرا بعد عصر، يقول تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[2] فجهدت عقول المجتهدين في إحاطته بالعناية العلمية، وحماية لسانه العربي من اللحن، وحماية معانيه من التحريف، في تضافر معرفي بين علوم اللغة وعلوم القرآن، خدمة لرسالته في التبليغ وبلوغ مراميه في الدلالات والمقاصد، يقول تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)**﴾[3]. واللسان العربي الذي هو كنه الخطاب القرآني وهو حامل مضمونه وأحكامه، وهذا ما منح لمعرفة طبيعة هذا اللسان أهميّته في تفسير الخطاب القرآني.

إن علوم التفسير من أكثر العلوم التصاقا بكتاب الله، وأكثرها ثراء معرفيا لاتصالها بعلوم شتى، ومن بينها علوم اللغة، واستند مصطلح التفسير على مدلوله اللغوي، «الفسر: كشف المغطّى والتفسير كشف المراد من اللفظ المشكل»[4] فأصبح عَلَمًا لكشف معاني القرآن الكريم منذ نشأته، فقد عرّفه الفراهيدي بقوله: «التفسير هو بيان وتفصيل الكتاب»[5] كذلك فإنّ « التفسير علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيّه محمد صلّى الله عليه وسلّم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»[6] فهو جَمَع بين خاصيتين بيان المعاني من جهة، واستنباط الأحكام والحكم من جهة أخرى. فهو ينطلق من كشف المعنى الدلالي للخطاب، للوصول إلى الدليل الحكمي للخطاب.

إنّ أوّل ما جُمع التفسير جُمع في أبواب الحديث بتدوين ما رُوي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو كبار الصحابة بما يتعلق بتفسير آية أو آيات، وأغلبها كان جوابا عن سؤال أو استفسار من المسلمين أو مجادلة للكافرين، و لم يعثر عن تفسير مستقل قبل بداية القرن الثالث الهجري، مع وجود روايات تدل على كتابة بعض التابعين لتفاسير كاملة مروية عن الصحابة، وانتقل التفسير بذلك إلى مرحلة التأسيس والتدوين الكامل، مستندا إلى هذا التراث التفسيري المروي، عن الرسول عليه السلام أو صحابته الكرام، قبل أن يتوسّع التأليف فيه، حسب مقتضيات معرفيّة في مراحل تاريخيّة مختلفة.

إنّ التفسير في المراحل اللاحقة بعدما أصبح علما مستقلا، فألّف فيه العلماء بمختلف مشاربهم، فكتب فيه الفقهاء والمحدّثون واللغويون ثم انتقل إلى اهتمام المتكلمين ومفكري الفرق والنحل، وكما تأثر بثقافة المفسّرين واهتماماتهم تأثر بمذاهبهم واتجاهاتهم، فتجد التفسير يحمل شخصيّة صاحبه، من حيث اختصاصه العلمي الغالب، ومذهبه العقائدي والفقهي، وموقفه الفكري والفلسفي، ونزعته اللغوية، ومناظرات الفرق والردود على بعضها البعض، وكل هذا أثقل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التفاسير منهجيا بالإطناب الذي أصاب أغلب التفاسير، قديمه وحديثه، فتوسّع إلى علوم مختلفة واستطرادات فكريّة متنوّعة، واستعمل في التنافس الفقهي والفكري بما تجاوز موضوعه ومقصده، في فهم الخطاب واستنباط أحكامه.

إنّ تفسير القرآن الكريم من أوّل ما احتاجت إليه العقول، لحفظ معاني القرآن ودلالات الألفاظ والآيات، ومراد الخطاب واستنباط الأحكام والدلالات، والعظات و الهدايات، فتوسّعت في استطراد معانيه، حتى قاربت مسائل علمية متداخلة، فاختلط التفسير بالفقه وأصوله، والحديث وقواعده، وعلوم القرآن والقراءات، وعلوم اللغة والبلاغة، واستجلاب القصص والروايات، فخرجت التفاسير في مجلدات، حرصا من المفسّرين على الإحاطة بمعانيه، والجهد في بلوغ مراميه، وتناول قضايا آياته بالتحليل والشرح والتعليل، واستنباط أحكامه والتوسّع في قصصه، وتحليل لفظه وكلامه، فتنوّعت اتجاهاته بتنوّع مناهجه، بين تفاسير أثريّة اعتمدت على الرواية في التفسير، إلى تفاسير توسّعت إلى فهم الخطاب.

إنّ علم التفسير اختصّ بالقرآن الكريم، فكان موضوعه كلام الله المنزّل على سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم والموسوم في المصحف الشريف، الواصل إلينا بالتواتر، فاستمدّ من ذلك علم التفسير شرفه ومكانته، من شرف القرآن الكريم ومكانته، كاشفا صفة البيان في كلام الله، ومستنبطا أوجه الإعجاز ودلائله، وإن جمع القرآن بين بيانه وإعجازه، في نظمه وخطابه، بلسان عربي كان جوهر عجز العرب أن يأتوا بمثله، مع اعترافهم، سواء بإيمانهم أو إنكارهم، أنّه كلام فوق طاقة البشر، مع أنّه جاء بلسانهم العربي، الذي يعرفونه ويفهمونه، لتبليغ مضمون الرسالة، وبيان أحكام الديّانة.

أنزل الله تعالى القرآن الكريم منجّما على رسوله الكريم، وقضى بحفظه وبيانه ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾[7] فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحقّ بتفسير مُراد الله، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، فبلّغ كلام الله كما أُنزل عليه، فكان أعلم الخلق بمعانيه ودلالاته ومعرفة مراميه ومقاصده، ولكن بعد وفاته عليه السلام احتاج البشر، على مرّ الأزمان والأجيال، إلى مقاربة التفسير ولو بجهدهم البشري القاصر بما اقتضته الحاجة إلى النهل من فتوحاته وإعجازه، في مواجهة نوازل العصور، واكتشاف أوجه الإعجاز المتجدّدة، فكثرت معاجم وتفاسير القرآن الكريم، واحتاج الناس إلى التفاسير، لأسباب منها:

1- إعجاز القرآن الكريم وقوّة بيانه.

2 – تعاقب الأزمان والأجيال من عصر التنزيل، وتباعد الزمن عن عصر نزوله.

3- دخول أقوام وشعوب إلى الإسلام ليس لها ذلك الحظ الواسع من معرفة اللسان العربي وحيثيات التنزيل.

4 – تنوّع إشكاليات العصور، فلكل عصر تحدّياته وحاجياته ونوازله.

5- معجزة القرآن المتجدّدة في إعجازها وفي كشوفها الدلالية.

6- طبيعة التراكم المعرفي الذي يقتضي تجدّد مسيرة التدبّر والتفكير في كتاب الله جلّ جلاله.

إن التفسير الذي نشأ في حضن علم الحديث، وحاول أن يتقيّد بالآثار، وجد نفسه ملزما بالمعاني اللغوية، وتناول قضايا اللغة في التفسير، بسبب انتشار الإسلام واختلاط العرب بشعوب وقوميات أخرى، لا تملك معرفة باللسان العربي، و لا تملك تلك السليقة التي كانت تُميّز الأوائل، فبدأ الاتجاه اللغوي يتبلور منذ أن بدأ علماء اللغة يخوضون في علوم القرآن، ويتناولون غريب ألفاظه، وشرح كلماته، وتتبع تراكيبه وجُمله، ونحوه وإعرابه، ونَظمه وأساليبه، واندفع المفسّرون للاهتمام بهذا الجانب وغلب على جزء من تفاسيرهم، حتّى شكّل اتجاها عُرف بالتفسير اللغوي.

إنّ ما يُميّز هذه التفاسير هو اهتمامها اللغوي في القرآن الكريم، وتوظيف اللغة في استنباط المعاني والدلالات، ومن ثمّ الأحكام، ومن نماذج هذا التفسير تفسير أبي حيان الأندلسي«الذي يمتاز بتحقيقاته النحويّة واللغويّة، وتوجيهه للقراءات»[8] الذي يصف منهجه في مقدّمة تفسيره: «أبتدئ أولا بالكلام على مفردات الآية التي أفسّرها لفظة لفظة...

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإذا كان للكلمة معنيان أو معان، ذكرت ذلك في أوّل موضع فيه تلك الكلمة لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيُحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية»[9] فتكون اللغة أساس المفسّر ومستنده، ومصدر تفسيره الأوّل، وأغلب اختياراته هي اختيارات لغويّة، مع توسّعه في توجيه التركيب النحوي والإعرابي للمعاني والدلالات.

إنّ هذا الاتجاه يعتبر اللغة وجه التفسير الأوّل ذلك أنّ « النظر في تفسير كتاب الله تعالى يكون من وجوه، الوجه الأوّل: علم اللغة اسما وفعلا وحرفا، الوجه الثاني: معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة إفرادها ومن جهة تركيبها، »[10] بعد أن كان التقيّد بالرواية والأثر في التفاسير، أصبحت الحاجة تتطلب النظر في الدلالة من خلال اللغة، حيث اللجوء إلى اللغة في التفسير بما يقتضيه فهم العقل من الخطاب، كان الخيار الأول، لا يُقدّم عليه إلا ما استند إلى الوحي، أو الأثر الصحيح، ويأتي المعنى اللغوي ثالثا حيث « الثالث الأخذ بمطلق اللغة فإن القرآن نزل بلسان عربي..الرّابع: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشّرع »[11]، فأخذ التفسير اللغوي أهميّته في التأصيل للتفسير.

إنّ هذا الاتجاه في التفسير يوظّف علوم اللغة للوصول إلى الدلالة وليس مجرّد الدراسة اللغويّة للقرآن الكريم، ذلك أنّ « التفسير اللغوي للقرآن الكريم، هو منهج في التفسير عني بالجانب اللغوي. وقد تمحّض لاشتقاق المفردات وجذورها، وشكل الألفاظ وأصولها فجاء مزيجا بين اللغة والنحو والحجة والصرف والقراءات»[12] فهو إعمال لعلوم اللغة في فهم الخطاب، ضمن سياقه اللساني ومجاله الدلالي، بأدوات اللغة ودلالات اللسان الحامل للخطاب، « فلا يستقيم للمتكلم في كتاب الله أو سنّة رسول الله أن يتكلّف فيهما فوق ما يسعه لسان العرب»[13] وهذا دليل على أن علوم اللغة كانت الضامن والضابط لعدم خروج الفهم عمّا تحتمله اللغة، ويحتويه اللسان، ومن هنا جاءت أهمية النحو في القرآن الكريم، ومن ثم إعرابه، « والنحو و الصرف قاما لعصمة اللسان عن الخطأ في تلاوة كتاب الله»[14] ولذلك انبرى العلماء في التأصيل لعلوم اللغة، والتأصيل لعلوم الشريعة، لحماية اللسان العربي، وحماية كتاب الله، والعمل على تفسيره.

إنّ التفسير باللغة أوّل التفسير وأصله، بعد التفسير بالوحي أو الأثر، الذي لعبت فيه اللغة أساسا لفهم الصحابة واجتهادهم، ما لم يقم الدليل على تلقيهم ذلك من النبي عليه الصّلاة والسّلام، ومن ذلك أنّ الأمثلة على أهميّة السياق اللساني واللغوي والبياني في التفسير كثيرة ومتنوّعة، أوّلها عندما يكون المعنى محدودا ومختصّا « وبضرب المثال تتضح هذه المسألة: قوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)**﴾[15] ، لم يقع خلاف في أن تفسير شانئك: مبغضك، ذلك أنه لا يوجد لمعنى الشانئ في لغة العرب غير هذا المعنى... لذا لا يمكن أن يحتمل التفسير قولا آخر فالتفسير اللغوي في مثل هذه المسألة، أشبه بأن يكون تفسيرا عقليا»[16]، ذلك أن المعنى لا يحتمل غيره، بسبب أن دلالته اللغويّة واحدة، فلا يمكن حمل المعنى على ما لا تقبله اللغة، ولا يحتمله اللسان، وليس له حقيقة شرعيّة تتميّز عن مدلوله اللغوي.

إنما يكون تعدد معاني اللفظ العربي ودلالاته يحيل إلى تعدد التفسير في حالة احتماله الشرعي ومن أمثلة ذلك الخلاف في تفسير بعض الألفاظ القرآنية التي لها أكثر من دلالة لغوية، فحملها بعضهم على معنى وحملها الآخرون على معنى آخر، ومن أمثلة اختلافهم في لفظ القرء.

في قوله تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[17].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقد ورد في معنى القرء قولان، كلاهما محتمل في اللغة، المعنى الأول: الحيض، والمعنى الثاني: الطهر. و الأمثلة على ذلك كثيرة، وهذا دليل أن اللغة كانت في صلب فهم المعاني بعد التفسير الثابت المنصوص عليه، فهي مصدر الفهم، ومنبع التفسير، ولا يخرج التأويل عمّا تحتمله من المعاني، ومثل هذا الاختلاف يترتب عليه التنوّع الفقهي لاحقا.

وأوجه التفسير اللغوي للقرآن الكريم متنوّعة المناهج، بتنوّع علوم اللغة، وطرق البحث والتأليف، ومن أهمّها:

الوجه الأوّل: تفسير معاني وغريب القرآن.

وهو تفسير يهتم بمعاني الألفاظ فهو «تفسير يعنى بشرح مفردات ألفاظ القرآن الكريم، وهو مبني على معرفة اللغة بأسرارها حيث أنّ العلم بها من شروط المفسّر »[18] فتصدّى لذلك لغويون وعلماء، مثل أبو زكريا الفرّاء (ت207ه) وأبو عبيدة بن المثنى (ت209ه) والمبرّد، محمد بن يزيد (ت 285) وأبو إسحاق الزجّاج (ت 311ه) والأصفهاني (ت503ه) وابن الجوزي (59ه)، وغيرهم ممّن تناول مثل هذا التفسير، بتتبع ألفاظ القرآن بالشرح والتفسير، كتفسير لفظ حدود الله « حدود الله: أي ما حدّه الله لكم، والحدّ: النهاية التي إذا بلغها المحدود له امتنع. حوبا كبيرا: أي إثما كبيرا، ومعناه إثما عظيما، الحوب بالضم: الاسم، وبالفتح: المصدر.»[19] وهكذا فإنّ اللفظ هو مدار بحثه وتفسيره، مستعينا بدلالته اللغويّة.

إن مثل هذه المؤلفات في معاني القرآن الكريم وغريبه، يتم فيها تتبّع الألفاظ في كتاب الله لشرحها وتفسيرها، وتأصيل معانيها الأساسية عند العرب، ومدلولها في السياق، وتمييز غريبها، ومشكلها، ومشتركها، مما تعدّدت معانيه، فيتم بسطها وتفسيرها والاستشهاد لها، بما حفظته اللغة من لسان العرب وأشعارهم، للاحتجاج على معنى دون آخر، وترجيح مدلول على آخر، بما ألفه اللسان العربي، وشاع مدلوله في عرفهم القولي « ومن ذلك معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أصولها حالة التنزيل...

مثل قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49)النجم 40**﴾[20] فعين هذا الكوكب لكون العرب عبدته، وهم خزاعة، و لم تعبد العرب من الكواكب غيرها، فلذلك عُنيت»[21] وهذا يقتضي معرفة الحقل اللساني العربي، وأحوال أصحابه في حياتهم بما يرتبط بفهم الخطاب النازل بلسانهم.

ـــ الوجه الثاني: إعراب القرآن.

وهو تفسير اهتمّ بإعراب القرآن وعلاقته بالمعنى ذلك أن «تفسير الإعراب لا بد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية، وذلك بأن يرتبط المعنى بالإعراب »[22] فتصدى له العلماء بالبحث والتمحيص، وألّفوا فيه المصنّفات، ومن أوائل الذين خطّوا فيه الكتب المستقلّة ابن النحاس، « كان ابن النحاس فيه يربط بين المعنى والإعراب، ويحاول أن ينظر إلى القراءات نظرة نحوي، إذ كان يقيس على الأشهر الأغلب في اللغة ويرفض الشاذ، وكان يحتج للقراءة التي عليها الإجماع »[23] كشرحه للآية الكريمة مستعينا بنحو اللغة فيها:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[24] .

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ﴾ «الخمر عند العرب عصير العنب إذا اشتدّ، ثم قال رسول الله ـــ كل سُكر خمر ـــ أبو داود باب الأشربة 3679، الترمذي الأشربة 57/8 فجعله بمنزلة هذه التي تعرفها العرب بالخمر، والأنصاب: الأوثان، والأزلام: القداح، والتقدير واستعمال الأزلام، (رجس) خبر الابتداء، والرجس عند العرب كل عمل يقبح فعله، والفعل منه رجس يَرجَس ورَجَس يَرجُس، والرَجسَ بفتح الراء وإسكان الجيم الصوت، والفعل من الميسر،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يَسَرَ يَيسَرُ فهو ياسر ويَسَر، {فاجتنبوا} يكون فاجتنبوا الرجس، ويكون فاجتنبوا هذا الفعل، ويكون لأحد هذه الأشياء، ويكون باقيها داخلا فيما دخل فيه»[25]

فيتمّ في مثل هذه التفاسير تسخير الإعراب لفهم المعنى، ضمن مدلول الخطاب، فيكون للوضع النحوي للألفاظ ضمن النظم اللغوي دلالته ومعناه، مثلما يكون لصرفها، ومعناها اللغوي ذات القيمة التي تخدم فهم الخطاب وتلقّيه، فموقع الكلمة والجملة وصيغتها النحويّة لها دلالتها في الخطاب.

ـــ الوجه الثالث: التفسير البياني.

وهو كذلك يعتمد على اللغة من حيث البيان و« هو لون يتخذ من دراسة بلاغة القرآن هويّة له، حيث تدور مباحثه حول بلاغة القرآن في صوره البيانية من تشبيه واستعارة وكناية... »[26] ففي دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت471) وهو يُقدّم شواهده في الوصول إلى النظر في الاستعارة للوصول إلى معنى النظم فيها، لفهم وجه البلاغة والإعجاز في الخطاب القرآني، وعدم التوقف فقط عند المعنى المتبادر لأول وهلة، بل تدبّر الصورة البيانية ومراميها، ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى في سورة مريم: ﴿**واشتعل الرأس شيبا**﴾[27] « فإن قيل: فما السبب في أن كان {اشتعل} إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل؟ ..فإن السبب أنّه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشّمول، وأنه شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه، وعمّ جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا ما لا يُعتدّ به، وهذا ما لا يكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة، وَوزان هذا أنك تقول اشتعل البيت نارا، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه، وأخذت في طرفيه ووسطه، وتقول اشتعلت النار في البيت، فلا يفيد ذلك »[28] فهذه القراءة البيانية، لصاحب دلائل الإعجاز لا شكّ أنها غاصت في معنى دلالي أعمق من المعنى السطحي الذي قد تفوته هذه المعاني، التي يمنحها التفسير البياني، الذي يستند على علوم البلاغة في التعامل مع الخطاب القرآني، فيمنح للكلمة مدلولها البياني، بل للحرف معانيه، كالباء بين الاستعانة أو السببية أو الظرفية....[29] .

إن هذه اللمحة في أوجه التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ضمن ميراث لغوي وشرعي يزخر بكنوزه، ويفتح الآفاق للدراسة والبحث في محيطه، والتمتع بشواطئ علمه، يمنحنا قناعة راسخة، وهمّة عازمة على أن هذا التفاعل بين علوم اللغة وعلوم الشريعة لا تنقطع أواصره، ولا تنضب عجائبه، ولا يفنى سخاؤه، فتبقى المعرفة بلسان العرب من أدوات المفسّر، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير« إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم... و هي متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتّبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم. »[30] ومن خلال هذا التفاعل المعرفي بين علوم الشريعة وعلوم اللغة تراكمت المعارف عبر الأزمان والأجيال، فحفظت للأمّة دينها وتناقلت ميراثها العلمي من جيل إلى جيل، ورسمت طريقا ومسيرة للاجتهاد والبحث والدراسة، وبقي هذا التفاعل العلمي والمعرفي بين المعارف والعلوم، وأساسها علوم الشريعة وعلوم اللغة، بحرا للباحثين والمجتهدين.

إن السياق اللغوي واللساني العربي، خصوصا عند افتقاد القرينة النقليّة للمعنى، يصبح ذا أهميّة في بلورة المعنى، ومن آليات العمليّة التفسيريّة حيث وهذا الاستعمال اللغوي أحد أساليب الدلالة في أصول الفقه، لاستنباط المعنى واستنباط أمارة الحكم الشرعي، ليس فقط لتلقي خطاب الله بوصفه متعبّدا بتلاوته، وإنما لاستنباط أحكامه، وبناء ما يستلزم منه من وضع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أو تخيير أو أمارة وعلامة على حكم، وهذا أجلّ ما تمنحه معرفة اللسان العربي في تفاعلها مع علوم الشريعة لأن «الاستدلال بالشريعة على الأحكام إنما هو من جهة كونها بلسان العرب لا من جهة كونها كلاما فقط»[31] وعليه كان التفسير باللغة أوّل التفسير وأصله، بعد التفسير بالوحي أو الأثر، الذي لعبت فيه اللغة أساسا لفهم الصحابة واجتهادهم.

إنّ أهميّة التفسير اللغوي لا تخفي مجموعة من الإشكاليات التي لابدّ من معرفتها ومن أهمّها:

1: إن استناد المفسّر إلى مجرّد اللغة لا يُسعفه في بلوغ حقائق الشرع دائما التي يتضمّنها الخطاب القرآني، في حالة تمايز الحقيقة الشرعيّة عن الحقيقة اللغويّة «ومن أحاط بظاهر التفسير، وهو معنى الألفاظ في اللغة، لم يكف ذلك في فهم حقائق المعاني»[32] ومن أمثلة ذلك في أنّ الدلالة اللغوية قد لا تشمل الدلالة الشرعيّة «ومن أنواع البيان التي تضمّنها هذا الكتاب المبارك أن يكون الظاهر المتبادر من الآية بحسب الواضع اللغوي غير مراد، بدليل قرآني آخر على أن المراد غيره ومثاله قوله تعالى ﴿الطلاق مرتان﴾[33] فإنّ ظاهره المتبادر منه أنّ الطلاق كلّه محصور في المرتين، خصوص الطلاق الذي تملك بعده الرجعة بقوله ﴿**فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره**﴾[34]»[35]، وهنا لم تكفنا الدلالة اللغويّة الظاهرة في المعنى الحقيقي، وحتى في مدلول المصطلحات التعبديّة « ثم إن الاقتصار على مجرّد اللغة لا يُعيّن المراد الشرعي بالألفاظ فلفظ الصلاة أو الزكاة أو الصيام مثلا، لا تسعفك فيها اللغة لمعرفة مراد الله تعالى بها، ولذا احتيج إلى بيان الرسول صلّى الله عليه وسلّم»[36] لمعرفة الدلالة الشرعيّة وكيفيّة أدائها.

2: إنّ البنية اللغويّة هي حمّالة أوجه، جعلت مفسّري الفرق والنحل باستغلال المدلول اللغوي لخدمة أغراضهم وأفكارهم، لأنّ المدلول اللغوي المنعزل عن أي علاقة دلاليّة مع حقائقه الشرعيّة له من الاتساع ما يتجاوز حدوده المقصودة، مثلما استعمل الخوارج مصطلح الحُكم في خدمة اتجاههم السياسي و العقائدي، أو مفهوم الباطن عند الباطنيّة، أو ما شكلته المصطلحات اللغويّة من جدل في العقائد، والاختلاف الكلامي بين أهل الكلام، مثل الاستواء، والصفات، والقدر...

3: تعدّد الدلالة اللغويّة كانت من أسباب الاختلاف في التفسير، وهو من اختلاف التعدد في الغالب، ولكن يحتاج إلى ترجيحات شرعيّة، نقليّة أو عقليّة، فمنذ عصر الصحابة أشكلت معاني بعض المشتركات اللغوية عليهم، فاختلفت تفاسيرهم.

4: الاستطرادات اللغويّة في كتب التفسير أثقلت التفسير بالمباحث اللغويّة والنحويّة والبلاغيّة، على أهميّتها، فإنّها من الناحيّة المنهجيّة والبحثيّة، مثل كل تلك الاستطرادات في كتب التفسير من علوم أخرى، تشوّش على موضوع التفسير وتجعل التفسير يتجاوز مفهومه وموضوعه إلى علوم أخرى، ومباحث إضافيّة ليست من حقيقة التفسير، وهو نوع من أنواع الاستطرادات والإطناب والحشو الزائد، لم يعد له اليوم مبرّره بعد تخصّص العلوم، وتطوّر مناهج البحث والتأليف.

إنّ الخطاب القرآني نزل بلسان عربي كما وصفه القرآن الكريم ذاته، ولذلك فمن البديهي أن يكون السياق اللغوي هو أحد معينات وأدوات الفهم، فمعرفة لغة الخطاب هي جزء من العمليّة التفسيريّة حتى في الخطاب العادي، فما بالك بالخطاب الموحى المعجز، الذي يتّسم نظمه بالإحكام وبلاغة الخطاب «النظر في تفسير كتاب الله تعالى يكون من وجوه: الوجه الأول: علم اللغة اسما وفعلا وحرفا...»[37] وتكون هذه المعرفة معرفة لمستويات لغويّة تبدأ من اللفظ ثم تتوسّع للأسلوب بأوجهه المختلفة.

إنّ التفسير ليس مجرّد عمليّة آليّة لشرح نص مكتوب، وإنّما هو عمليّة علميّة واجتهاديّة، تحتاج إلى معارف متعدّدة ومتداخلة، وتتمّ ضمن سياقات دلاليّة، وفق أصول وقواعد نقليّة ولسانيّة وعقليّة، خصوصا أنّ موضوع التفسير ليس مجرّد نص لغويّ أو أدبي بشري، وإنّما هو كلام إلهي معجز ومبين ومتعبّد بتفسيره وحاكم، لأنّ الاستنباط الدلالي منه ينتج عنه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحكام وقيم تترتّب عليها علاقة تعبّديّة بين المتلقّي والمخاطب، وعليه«فإن علم العربية، أو علم الناسخ والمنسوخ، وعلم الأسباب، وعلم المكي والمدنين وعلم القراءات، وعلم أصول الفقه، معلوم عند جميع العلماء أنها مُعينة على فهم القرآن»[38] الفهم العميق والذي يبذل الجهد الأقصى في فهم مراده، وهذه السياقات التي نحتاجها في عمليّة التفسير تقتضيها طبيعة وخصائص الخطاب، فعلم العربيّة لأن الخطاب هو بلسان عربي، لا يمكن فهمه إلا وفق هدا اللسان، ووفق أصول استنباطية يتطلبها دلاليّة الخطاب، ووفق ارتباطاته بسياقه التنزيلي والدعوي من سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ليس فقط بسبب ارتباط تاريخي بتلك الظروف و المراحل والأحداث، ولكن بوصفها نماذج حياتيّة للحياة البشريّة والإنسانيّة، ومن بين هذه السياقات المساعدة على فهم القرآن ومن ثمّ تفسيره.

قائمة المصادر و المراجع:

[1] – سورة يوسف، الآية 2.

[2] – سورة الحجر، الآية 9.

[3] – سورة الشعراء، الآيات : 193، 194،195.

[4] – ابن منظور. أبو الفضل محمد. لسان العرب. دار الحديث، القاهرة ، مصر، ج7، دط، 2003، ، ج7، ص 101.

[5] – الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين. تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، ص312.

[6] – الزركشي، بدر الدين محمد. من مقدمة البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، مصر، ط3، 1984. ج1، ص13.

[7] – سورة القيامة، الآية 7.

[8] – ابن باديس عبد الحميد. تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. جمع وترتيب : توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2، 2003، ص 41.

[9] – أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. تفسير البحر المحيط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993،ج1، ص103، 104.

[10] – المرجع نفسه، ص105،106.

[11] – السيوطي، جلال الدين. الاتقان في علوم القرآن. تحقيق: مركز الدراسات القرآنيّة، مجمّع الملك فهد، المدينة المنوّرة، السعوديّة، 1426ه، ج1، ص394.

[12] – أحمد سعد الخطيب. مفاتيح التفسير. دار التدمرية، الرياض، السعودية، ط1، 2010،. ج1، ص 360.

[13] – الشاطبي، أبو إسحاق. الموافقات. تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ، ج2، ص62.

[14] – ينظر: أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، لبنان، ط2، 1986، ص12.

[15] – سورة الكوثر، الآية 3.

[16] – مساعد بن سليمان بن ناصر الطيّار. التفسير اللغوي للقرآن. دار ابن الجوزي، الرياض، السعوديّة، ط1،1422ه ، ص 63.

[17] – سورة البقرة، الآية 228.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[18] ــ أحمد سعيد الخطيب . مرجع سابق. ج1، ص 357.

[19] ــ السجستاني، أبوبكر محمد، غريب القرآن(نزهة الغريب) ، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، مصر، دط، 1993، ص81.

[20] – سورة النحل، الآية 44.

[21] ــ الشاطبي.مرجع سابق. ج3، ص 219.

[22] ــ أحمد سعيد الخطيب، مرجع سابق. ج1، ص 341.

[23] ــ زهير غازي زاهر. مقدمة إعراب القرآن. ابن النحاس أبو جعفر أحمد، تح زهير غازي زاهر، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص72.

[24] – سورة المائدة، الآية 90.

[25] ــ ابن النحاس، أبو جعفر أحمد. إعراب القرآن الكريم. تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 298.

[26] ــ أحمد سعيد الخطيب. مرجع سابق. ج1، ص 3347.

[27] – سورة مريم، الآية 4.

[28] ــ الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح محمد التَّنجي، دار الكتاب العربي، ط1، 2005، ص 83.

[29] ــ ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم. محمد عبد الخالق عضيمة. دار الحديث القاهرة، مصر، دط، دس، ج2، ص5ــ 14

[30] ــ بن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير. التونسية للنشر، تونس، تونس، 1984، ج 1، ص 18.

[31] ــ الشاطبي، أبو إسحاق. مرجع سابق. ج2، ص70.

[32] ــ الزركشي، بدر الدين محمد. من مقدمة البرهان في علوم القرآن . ص 155.

[33] – سورة البقرة، من الآية 229.

[34] – سورة البقرة، الآية 230.

[35] ــ الشنقيطي. محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ج1، ص17.

[36] – عبد الله بن يوسف الجديع. المقدّمات الأساسية في علوم القرآن. مركز البحوث الإسلاميّة، ليوز، بريطانيا، ط1، 2001، ص 353.

[37] - أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. مرجع سابق، ص 109.

[38] – الشاطبي، أبو إسحاق. مرجع سابق. ج3، ص237.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com